النهضة الشرقية الحديثة

اظهر مظاهرها وابقى آثارها

١ — رأي الاستاذ جرجي يني

صاحب مجلة المباحث الطرابلسية

كان الشرق آهلاً بعمرانهِ زاهياً بحضارتهِ . وعلى اثرهما كانت لهُ عزتهُ ومكانتهُ وكانت سورية مطمح نظر كل فاتح قديم او غاز فاتح وهي تتأثر لتلك الحضارات ولاسيما ما ساد منها بأس ذويهِ

ولما غلب الاتراك على القسطنطينية ثم على سورية ومصر رحلت بقية الحضارة البزنطية الى اوربا فكانت قبساً اضاءت شعلة العمران هنالك . اما الشرق الادنى الذي سادتهُ القوة فان ثقافتهُ جعلت تتقلص شيئاً فشيئاً حتى انطفأت شعلتها . وكاد لا يبقى في بلاد العمران القديم الاَّ نفر يعدون على الاصابع ممن يفقهون معنى الحضارة الضائعة . ولكن لأب منابهم رجال الدين وخدمة الدولة . ومن هؤلاء — اعني الموظفين — قوم جعلوا الناس يظنون بان عملهم لم يكن يحتاج الى علم راسخ وادب وخبرة . بدليل ان منهم من كان يجهل القراءة والكتابة . و بالرؤساء يقتدي المرؤسون وعلى منوالهم ينسجون . وقد مرّت السنون وهم على نهجهم يدأبون . حتى اني عرفت موظفين كبيرين في العشرات الاخيرة من القرن التاسع عشر احدهما كان رئيساً لمحكمة التجارة وهو امي راسخ القدم في الجهل مستسلم بكليتهِ لكاتبهِ . فجاءهُ ذات يوم تاجر محكوم يريد التظلم من الجور وابرز ورقة الحكم لكن الرئيس اخذ الورقة ليظهر انهُ يقرأها فاسكها مقلوبة لانهُ لم يدر اعلاها من اسفلها . وثانيهما زعيم لم يكن يعرف ان يكتب اسمهُ (حسن) فعلموهُ ان يضع ٨ وعلى بعد منها ٧ وان يمد خطاً بين الطرفين فيظهر (حسن)

وكان الذين يقرأون و يكتبون في طول سورية وعرضها عدداً قليلاً — والبارعون منهم من النوادر وسائرهم يسمون كتّاباً و يشكلون الدواة في حزامهم تفاخراً بمعرفتهم كيفية تعليق الحروف بعضها ببعض . ولا احسب قطراً في الشرق الادنى كان يشذ عن هذا الوصف الاجمالي . ولكن اعرف عن الناس منهُ انبأتنا اخبارهم انهم شذوا عن القاعدة بما برعوا فيهِ من العلوم الدينية والشرعية والادبية

واذا صح لي ان اتخذ مما اعرف من حال سوريا مقياساً للشرق الادنى اقول ان امراء الاقطاع وعمال الدولة ان لم يكن قصدهم منع تعميم العلم وترويج الادب فانهم كانوا على الاقل لا يحسبون وجودهما مفيداً لهم . لان الفائدة التي يتوخونها كانت محصورة في ما يوجهون اليهِ جهودهم من جمع مال الجبايات وتعزيز سلطتهم ولا يبالون بالناس لانهم عندهم كبقرات حلوبة لا يؤبه لهم اكانوا في نعمة او في ذلة. ولقد رأيت امثلة كثيرة لما كتب علماء ذلك الزمن فاذا فيها الصحيح والسقيم . وقرأت لكثيرين ممن اسموهم كتاباً رسائل تختلف في البيان ولكن اكثرها ركيك التعبير تغلب عليها لغة العامة وقد تتخللها عبارات مستحسنة

وجملة القول ان تفشي الجهل والامية والتعصب وجور الحكام وضعف المحكومين ونقرهم جعل الشرق الادنى تائهاً باساً . وقد تمشت حالهُ بحكم الاستمرار وما زال الامر كذلك حتى جاء مصداق القاعدة الطبيعية (يبقى الجسم على حالهِ من السكون او الحركة حتى يأتيهِ فاعل خارجي) . وذلك الفاعل الخارجي جاء اوربا . لان محمد علي باشا انجبتهُ الحضارة الافرنجية فاخذ بها في مصر ولما فتح ابنهُ ابرهيم باشا سورية اراد ان يقتدي بابيهِ وكما فتح محمد علي ابواب مصر فتح ابرهيم ابواب سورية وانتشرت الكتائب فيها ونبذت بعض العادات والمناهج القديمة

وتبارت هم رجال الارساليات الافرنجية في التعليم والتهذيب فأنشئت المدارس والمطابع وأصدرت الجرائد . الاَّ ان القرن التاسع عشر ولئن حق لهُ ان يتباهى بما تمَّ فيهِ من التأسيس الادبي فاني رأيتهُ ينقضي ورغبة الناس في التعلم ضئيلة . ولم اجد المدارس السورية منصرفة الى العلوم العالية قبل الربع الاخير من القرن المنصرم . وكل ما اذكر اهتمامها بتعليم محصور في اللغات العربية وبعض الافرنجية . ولما نشأت الكلية الانجيلية ببيروت وجعلت تعلم الطب والصيدلة وبعض العلوم العالية كان عدد الطلبة فيها دون الخمسين . وها هي الآن وقد صارت تسمى بالجامعة الاميركية والى جانبها جامعة الاباء اليسوعيين والكلية الاسلامية ومدارس الفرير وغيرها . وعدد الطلبة فيها الوف مؤلفة . وكلهم صاروا يأتون بيروت من اقصى البلاد لطلب العلم والفن مع ان في لبنان وسورية وفلسطين مدارس راقية تزدحم بطلابها

فالحاجة الى العلم لم تبقَ خفية عن سواد الناس . والاندفاع اليهِ بلغ الجهد هو الشعور بشدة لزومهِ . وشعور الناس بذلك لا يستدل عليهِ بكثرة الطلاب فقط بل بما هو أشد وضوحاً . ذلك ان اجور المدارس علت الآن علواً كبيراً فلم تمنع الاباء من تعليم اولادهم

ذكوراً واناثاً . غير سالمين بالحالة الاقتصادية التاعسة

ولم يكن من قبل عشرين سنة او ثلاثين من مخرجي المدارس العليا مَن يذهب الى اوربا واميركا لاستكمال العلم الاَّ بعثات ترسلها حكومة مصر على نفقتها او نفر يعدون على الاصابع . اما اليوم فلا تكاد تجد شاباً نبيهاً يتخرج في علم او فن الاَّ وقد شد الرحال لاستزادة الطلب في الجامعات الفرنجية

واني لاذكر ولا انسى ان اصدقاء البستاني الكبير رحمهُ الله وتلاميذهُ على كثرتهم لم يأتوهُ بعدد من القراء لجلتهِ الجنان يماثل عدد قراء امثير جرائد يومنا هذا . بل ان كتاب دائرة المعارف مع شدة الحاجة اليهِ لم يكن قراؤهُ كثيرين بالنسبة لمكانتهِ من الفائدة . واني لواثق بان كثيرين من قراء المقتطف المفيد كانوا يتبرمون من انهُ يكتب المقالات العلمية العويصة التي لا يفهمونها . وبمرور الايام علت ابحاث المقتطف فصارت لا تقاس بما جال بهِ في سنيهِ الاولى ولم يبقَ بين قرائهِ من يتبرم بهِ لعلو همتهِ

أفلا يحسب ما صرفنا اليهِ من التهافت على المدارس من الدأب على الطلب والرغبة في الاستفادة و بذل المال في سبيلها مظهراً للنهضة الشرقية بل مظهرها الوحيد ؟ أوَلا ترى في كثرة الكتب والمجلات والصحف دليلاً على دبيب المعرفة بيننا

لا جرم ان الثقافة الصحيحة تمُّ باحراز العلم والادب . ومتى تكاثرت وعمت او كادت تعم جاءت بعمران البلاد وازدهائها . واذا سلمت من الشوائب فهي النهضة التي اسماها الفرنساويون La renaissance ودعاها الانكليز Renascence . اما نهضة الشرق فهي حتى اليوم بادئة وليست بالثقافة المحكي عنها وانما هي تحفز للوثوب اليها . ولعلنا نفوز بما نرجو الظفر بهِ اذا لم يأخذنا الملل قبل اتمام السير . او لم نحسب القشور لباباً او عدونا ونحن لا نستتم الاَّ الى مفاخر الماضي . قائلين هذي بضاعتنا ردت الينا . وما اخذنا منها الاَّ قليلاً او حاسبين لكل جديد لذة فنظن اللباس ركناً والمظاهر عماداً

نعم انا لنرجو الفوز بالثقافة كاملة يوم يكثر المشتغلون — واخص الراقين النابهين منهم — ويوم يشتد ابناء تجارنا وصناعنا وزراعنا اذا فعلوا لا يستكثرون من مقابلة عمل آبائهم لانهم يعلمهم يستطيعون ان يزيدوا عملهم تحسيناً وبزيادة تحسينهِ يزداد ربحهُ وبتلك الزيادات تعلو درجة العمران . وبالجملة وفق الله شبابنا الى الدأب على اقتباس المفيد النافع ونبذ العرض والاهواء . وابعدهم عن السياسة وتسويدها حتى على النهضة لانها قد تشذّ بشابيها عن سواء السبيل

طرابلس جرجي يني

٢ — رأي الاستاذ محمد لطفي جمعه المحامي

حضرة الاستاذ رئيس تحرير المقتطف الاغر

شرفتني بخطاب ، تسألني فيه رأيي الضعيف ، في موضوع « اظهر مظاهر النهضة الشرقية الحديثة وابلى آثارها » . وكان من حسن حظي ان قرأت بعض جوابات العلماء الاجلاء الذين افاضوا واسهبوا في بحث هذه المسألة ، ولكنني رأيت معظمهم قد جعل البحث منصبًّا على الشرق العربي دون سواه ، والامم الاسلامية خاصة . على انني ارى ان النهضة الشرقية الحديثة قد تناولت امم الشرق القريب والبعيد ، اي الادنى والاقصى . واول مظاهر تلك النهضة كان في بلاد اليابان التي وإن كانت امبراطورية وثنية الا انها اعظم ممالك الشرق . وكانت نهضتها كما لا يخفى على علمكم الواسع ، منشعبة الاطراف ، وامم وسائلها الحرب ، والاقتصاد ، والتجديد . وكان يجب على امم الشرق الادنى ان تنسج على منوال تلك الامة ، وقد ظهر ان قوتها المادية التي تمكنت بها من قهر روسيا القيصرية ، هي التي حفظت كيانها ، وجاءت العناصر الاخرى لتقويها وتدعمها . واذا نظرنا الى بعض امم الشرق الادنى التي نهضت في اوائل القرن التاسع عشر ، مثل مصر مثلاً ، وجدنا انها فكرت قبل كل شيء في ايجاد الجيش والاسطول وتعليم ابناء البلاد وزيادة مصادر ثروتها . وبعد ان سارت اليابان في طريقها ، ونجحت مع كونها امة وثنية ، كان يحسن بالامم ذوات الاديان المنزلة ، ان تنظر في وسائل النهوض التي هي بلا ريب مستقلة عن العقائد الدينية . ولكن يظهر ان تغيُّر الحكام وتبدلهم وعدم تخلق الاخلاف باخلاق الاسلاف ومواهبهم ادّى الى النكوص فالتقهقر فالانحطاط الذي عقبهُ انتعاش او « احياء »

وقد نهضت بلاد الهند العظيمة ، نهضة اخرى من سبيل العلم والاقتصاد ، ولكن احوال هذه البلاد من تعدد في اجناس ابنائها ، وادبائهم ، ولغاتهم ، وميادئهم ، ورزوحها تحت نير كثير من العقائد المتناقضة ، وعدم تمتعها بحقوقها السياسية ، جعلت نهضتها في سبيل «المحاولات» ، والتطلع الى المثل العليا ، دون التحقيق فانتجت تلك النهضة ، تكوين بعض الجامعات والمدارس العليا ، ثم ظهر من ورائها رجلان ، هما غاندي وتاغور ، وكلاهما وثني ، الاول مصلح سياسي اقتصادي ، والثاني مصلح اجتماعي روحاني ، ويحوم حولهما بعض المصلحين الاسلاميين امثال شوكت علي ومحمد علي

اما بلاد الفرس العريقة بمجدها وتاريخها وآدابها، فقد نهضت منذ عشرين عاماً وحصلت بالقوة المادية على « الدستور » من الشاه ناصر الدين، وقبلهُ ولدهُ محمد علي الذي توفي حديثاً، قبولاً صورياً، ثم هدم دار البرلمان بالمدافع سنة ١٩٠٧ ولكن هذا النهوض القومي، كان لهُ بعض الفضل، في صد تيار الجارتين القويتين، عن ابتلاع « بلاد كسرى انو شروان » حتى اشتعال نار الحرب العظمى، التي قضت على مطامعها جميعاً بحوادث لم تكن في حسبان احد

اما بلاد العرب وهي مهد المدنية العربية الاسلامية، فهي في نظري لم تنهض، ولم تتغير منذ زمن الجاهلية، الى الآن، لانها لا تزال جملة دويلات صغيرة، تتطاحن وتتحارب وتتنازع السلطة، وتخضع لتأثير الممالك القوية في العالم، القادرة على اجتلاب رضاء الامراء والسلاطين بالمال تارة، وبالمعاهدات الحربية تارة اخرى. ولا تتردد في التهديد والوعيد والعزل والخلع عند مقتضى الحال. غير ان ميازين القوة تحوّلت، فبعد ان كانت دول الفرس والرومان والمصريين صاحبة الحول والطول في الجزيرة اصبحت انجلترا وايطاليا وفرنسا هي التي تمد انامِلها الى الجزيرة العربية. وليس في الجزيرة حياة سياسية او اجتماعية او اقتصادية بالمعنى المعلوم لكم ولنا

ولا تكاد بلاد العراق تخرج عن حكم الجزيرة فهي منذ ان دالت دولتا بابل وآشور لم ترَ للمدنية نوراً سوى « مشروع ري الجزيرة » الذي انجزهُ المهندس البريطاني ويليام ويلكوكس ولم ينفذهُ الاتراك في حينهِ ويستحيل تنفيذهُ الآن

اما نهضة الشعب التركي فنهضة حربية سياسية اجتماعية واظهر مظاهرها « قطع العقدة القديمة » بالسيف، فتخلصت من التقاليد الدينية، ومن الخلافة بل من الاتصال بالامم الشرقية الضعيفة، وفي ذلك من تقليد اليابان تقليداً ظاهراً محسوساً ما فيه، فهذه الدولة التركية الحديثة تريد ان تدخل في دائرة المدنية الاوربية سياسياً وقانونياً ولكن ليس للاتراك مدنية عملية او فنية مثل اليابان، ولغتهم وان كانت غنية بالشعر والنثر، الاَّ انها ليست من اللغات العريقة التي تحيي الفنون في اكنافها، وهم يريدون تغييرها وتعديلها وكتابتها بالحروف اللاتينية

اما مصر وسوريا وفلسطين وهي البقية الباقية من الشرق الادنى العربي، فاظهر مظاهر نهضتها، التطلع الى تقليد اوربا في العلوم والفنون والآداب الاجتماعية وحياة الاسرة وحرية المرأة والصناعات والاعمال المالية واحياء اللغة العربية المشتركة بين

هذه الامم الثلاث ولو استطاعت لعمت الانظمة الاوربية الحديثة جميعها *

وقد ظهرت في الاعوام الاخيرة نهضة سياسية قوية ، بدت فيها عناصر المقاومة الحربية ، ضد بعض امم اوربا القوية وذلك في سبيل النهضة السياسية . واليك بيان المظاهر الاخرى

ففي مصر ظهرت الجامعة المصرية وهي « نواة الترقي» في جميع الممالك وفيها أنشئ بنك مصر برؤوس اموال مصرية وقام رجال عظماء اصحاب مبادئ قومية قوية ، يعرفون كيف يدافعون عنها امثال محمد عبده وقاسم امين ومصطفى كامل وسعد زغلول. وفيها أصدرت مجلات وجرائد وكتب ذات قيمة لفتت انظار بعض علماء اوربا . وظهر بعض المجتهدين في سبيل الاصلاح الديني والاجتماعي والتشريعي وحصلت مصر بعد جهاد عنيف (امتد خلال اربعين عاماً منذ ظهور احمد عرابي الى الآن) على دستور وبرلمان وحكم ملكي مقيد

وفيها تأسست المدارس لتعليم المرأة بل ارسلت ارساليات نسوية الى ممالك اوربا لتخرج في العلوم العالية

وسوريا لا تقل في هذه السبيل عن مصر بل في معظم فروع الحياة العقلية والعملية كان السوريون اساتذة للمصريين واموالهم ، ولم يقصر المصريون في عرفان الجميل لاخوانهم ، وجيرانهم . ولا يخفى ان السوريين واللبنانيين استفادوا كثيراً من المهاجرة والارتحال الى العالم الجديد فربحوا الاموال واتقنوا بعض العلوم والآداب وظهر منهم رجال نوابغ في المال والفنون واسست امريكا نفسها في احدى عواصمها جامعة عقلية اخرجت كثيرين من فطاحل الشرق العربي ، فكان اتجاه النهضة في تلك البلاد امريكياً نوعاً ما . وقد سبقت دمشق سائر العواصم العربية بتأسيس المجمع العلمي العربي الذي هو شبه اكاديمية ، ولم تبلغ مصر شأو هذه الفكرة الى الآن وان كان فيها من قام بتأليف دائرة معارف او « معلم » . فمندي ان اظهر مظاهر النهضة هو عملي ادبي اجتماعي تقليدي ولا تزال النهضة القومية التي تشبه النهضة اليابانية في حيز الفكر والخيال وابقى تلك الآثار الثورة والبرلمان والجامعة والمجمع والنهضة اللغوية في النثر والشعر وتحرير المرأة . ولا تزال بعيدين عن الحياة الحقيقية بمراحل عديدة جداً وقد نموت نحن واحفادنا ولا تقطع بعضها وقول الحق اولى !

محمد لطفي جمعه